16 ème Année No. 781

Lundi — 21 — 6 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

ثمن الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٨١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ١٣٦٧ — ٢١ يونيو سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

فى النقد التـــاريخى

للأســـتاذ عباس محمود العقاد

يشيع فى هـذا العصر نقد التاريخ ، لأن أبواب التاريخ على اختلافها قد أصبحت من موضوعات الدراسة الشائعة فى المدارس والجامعات ، وأصبح التعليق عليها من عمل الأساتذة والطلاب والقراء .

وقد لاحظنا أن نقدة التـاريخ عندنا يثبتون وينفون ، ويصوبون ويخطئون ، ويعرضون للروايات والأسانيد بين قبول ورفض ، وبين ترجيح وتوهين ، ولـكن الـكثيرين منهم لا يلتفتون إلى الفرق بين صحة الرواية ودلالة الرواية ، وهما شيئان مختلفان ، لأن الرواية الصحيحة قد تكون خلواً من الدلالة فى تاريخ الأمة أو سيرة العظيم ، وقد تكون الرواية الـكاذبة أدل على الأمة أو على العظيم من كل خبر صحيح .

لهذا لا يصح أن يكون عمل الناقد التاريخى مقصوراً على إثبات الصحيح وإسقاط غير الصحيح ؛ لأن الخبر الذى له دلالة نفسية أو دلالة اجتماعية لا يسقط من سجل التاريخ ، وإن كان مقطوعاً بكذبه أو مشكوكا فيه ؛ فإنما المهم — جد المهم — فى التاريخ هو ما يدل عليه .

ولنذكر مثلاً لذلك ما قيل عن حروب الإمام على رضى الله عنه مع كفرة الجن فى الـكهوف والمغاور ، وما كان من تأليبه الجن المسلمين على الجن الـكافرين فى أيام الدعوة الإسلامية .

فقل فى صحتها ما تشاء . قل إنها كذب محض وتوليف من نسج الخيال ، ولـكنك لا يجوز لك من أجل ذلك أن تلقى بها فى سلة المهملات كما يقولون ، لأنها لا تكون من المهملات وفيها دلالة على شىء كثير ، وفيها بيان للفارق بين « شخصية » على وشخصية غيره من الشجعان فى نظر الناس .

لم لم ترو أمثال هذه المعارك عن خالد بن الوليد ؟ إن خالدا رضى الله عنه كان من أشجع فرسان العرب والإسلام ؛ فليس اعتقاد الشجاعة فى إنسان هو الذى يوحى إلى الخيال أن يتمثله فى تلك الصورة وينسج حوله أشباه تلك الروايات ، ولـكنها الشجاعة وشىء آخر غير الشجاعة ، وهو الإيمان بقدرة غيبية أو بسر من الإسرار الإلهية يملكه هذا الشجاع ولا يملكه ذلك الشجاع .

وإذا بلغ من رواية « خيالية » أنها تريك كيف كان بطل من الأبطال فى نظر الناس ، فتلك دلالة نفسية لا تظفر بها فى كثير من صادق الأخبار .

هذه التفرقة بين حجة الرواية ودلالتهـا هى التى تلاحظها فى إيراد بعض الروايات التى نشك فيها أو نقطع بنفيها ، ولـكننا لا نسقطها من الحساب عند الـكتابة عن سيرة عظيم من العظماء لأنهـا لا يصح أن تسقط من الحساب وفيها دلالة عليه أو على نظر الناس إليه .

لاحظناها فى سيرة كل عظيم من عظماء العرب الذين كتبنا عنهم ، ولو أننا أسقطناها لفاتنا أن نفهم حقيقة العظيم كما كان ، وأن نفهم حقيقته كما كان فى نظر الناس .

من ذلك فى سيرة عمرو بن العاص أننا أوردنا رواية ابن الكلبى حيث قال : « لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل غزة ، فبعث إليه علجها أن ابعث إلى رجلا من أصحابك أكلمه فتفكر عمرو وقال : ما لهذا أحد غيرى ، وخرج حتى دخل على العلج فكلمه ، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله : فقال العلج : حدثنى ! هل فى أصحابك أحد مثلك ؟ قال : لا تسأل عن هذا ؛ إنى هبت عليهم إذ بعثوا بى إليك وعرضونى لما عرضونى له ولا يدرون ما تصنع بى . فأمر له بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب : إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ مامعه . فخرج من عنده فمر برجل من نصارى غسان فعرفه ، فقال : يا عمرو ! قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . ففطن عمرو لما أراده ، ورجع فقال له العلج : ما ردك إلينا ! قال : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجد ذلك يسع بنى عمى ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد . فقال : صدقت . أعجل بهم ، وبعث إلى البواب أن خل سبيله » .

فهذه القصة تذكر ويقال فيها إنها غير مقطوع بصحتها ، ولكنها تذكر لدلالتها النفسية ودلالتها التاريخية . وكذلك فعلنا حين عقبنا عليها فقلنا « إنها لا تؤخذ على علاتها فى تفصيلاتها ولا يلزم أن تصح أصولها ولا فروعها ، ولكنها تدل — ولو كانت مؤلفة — على أشياء قريبة من الحقيقة ، بل لا بد أن تكون قريبة منها ، لأن صدق الأخبار عامة لا يستقيم ولا ينتظم بغيرها . فمن تلك الأشياء شهرة عمرو بالدخول فى أمثال هذه المداخل العويصة التى يجرب فيها حيلته كما يجرب إقدامه . ومنها أن عرب الشام كان فريق منهم على الأقل ينظر إلى الحرب بين الروم والمسلمين نظر العصبية الجنسية على ما بينهم من الفارق فى العقيدة ... الخ »

وهكذا فعلنا فيما رويناه عن فراسة عمر بن الخطاب وملكاته الغيبية واشتهاره بها بين المسلمين . فإن الرواية فى هذا المقام تذكر وتشفع بالتعقيب عليها وبيان حكم العلم والتاريخ فيها ، ثم تؤخذ منها دلالتها على كل فرض من الفروض ، وإن كان بعض هذه الفروض إنها مخترعة أو أنها نقلت مع المبالغة فيها والزيادة عليها .

***

فرق إذن بين الصحة والدلالة فى الروايات التاريخية .

وفرق آخر — شبيه بهذا الفرق — بين أمرين آخرين لا يعطيان حقهما من التفرقة ، وهما النفى وعدم التصديق .

فإذا مر بك خبر مقرر فجزمت بنفيه فأنت المطالب بالدليل .

ولكنك إذا مر بك خبر من الأخبار فلم تصدقه فأنت الذى تطالب الدليل ، وليس عليك أن تقيم دليلا لأنك لم تصدق خبراً تعوزه الأدلة ، بل كل ما عليك أن تذكر أسباب الشك أو أسباب عدم التصديق .

وهذا الذى فعلناه فيما روى عن وأد الفاروق لبنت من بناته ، فإن الرواية ناقصة تبعث الشك ولا تطرد مع سائر الأخبار ، فليس علينا أن نصدقها ولا يقال إذا نحن لم نصدقها إننا مطالبون بدليل أو أننا نفينا كلاما بغير برهان .

ولعلنا نقرب الفرق بين الأمرين بتشبيه عصرى من مسائلنا المعهودة فى الدعاوى اليومية . فكلام المدعى لا يلزمك ما لم يقم دليلا عليه ، ولكن حكم المحكمة يلزمك فلا تنقضه أنت إلا بدليل أقوى من أسبابه التى بنى عليها .

***

ومن الفروق التى نعرض لها فى هذا الصدد ذلك الفرق البعيد بين الحوادث كما تدل عليه فى ذاتها ، وبين الحوادث كما تدل عليه فى تقدير صاحبها الذى تنسب إليه .

ولنضرب لذلك مثلا من حديث مكتبة الاسكندرية .

فإننا أشرنا إليها واتبعناها بالأدلة التى تبرىء الفاروق من تبعة إحراقها ، ثم قلنا إن الفاروق لا يلام على إحراقها لو صح أنه أحرقها وهو غير صحيح ؛ لأنه لا يطالب بعلم الفلسفة اليونانية ولا يتبين صلاح تلك الفلسفة من أحوال أهلها . « فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفساف الأمور . فإذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها ، وإذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب فى تفكيره إن صح أنه فكر على